

أحمد لطفي السيد

اثر وفاة أحمد لطفي السيد قبل أسبوع في القاهرة ، طلبت « حوار » الى اثنين من اصدقائه عرفاه وعملوا معه بصورة مباشرة واطلعا على نتاجه اطلاقاً عميقاً وثيقاً ان يكتبها عنه لها . فكتب الدكتور ابراهيم مدكور عن فكره الاصلاحى وقارن بينه وبين المفكرين المصلحين الاخرين الافغانى وعنده . وكتب الانسة عفاف لطفي السيد عن حياة عمها وضمت مقالها بعض الذكريات والانطباعات الشخصية .

- لطفي السيد بين المصلحين ابراهيم مدكور

للنهضة المصرية الحديثة رواد شقوا طريقها واقاموا صرحها ، دعوا اليها بالسنتهم واقلامهم ، وبذلوا في سبيلها ارواحهم . وربما اختلف طرائقهم وتنوعت وسائلهم ولكنهم يلتقون عند هدف واحد وغاية مشتركة ، هي متابعة ركب الحضارة واستعادة المجد الغاير . ومن بينهم ثلاثة تعاصروا وتلاحقوا ، واخذ بعضهم عن بعض ، وكونوا سلسلة متصلة الحلقات ، بحيث اذا ذكر احدهم خطر الآخران بالبال ، واعني بهم جمال الدين الافغانى ، ومحمد عبده ، واحمد لطفي السيد .

اما جمال الدين فهو بحقّ الناصر الاول بين المسلمين في العصر الحديث ، ثار على التقاليد البالية والعقول الجامدة ، واستطاع في النصف الاخير من القرن الماضي ان يرفع الصوت جهره ضد الظلم والاستبداد . كان يمقت ظلم الملوك والحكام ، كما كان يمقت عدوان الاجانب والمستعمرين . وقلّ حمل على هؤلاء وهؤلاء ، وكان لحمته آثارها السريعة والمباشرة في مصر وايران . صوّب سياسياً الى هدفين اساسيين : دستور يحمي الافراد ويحترم حقوقهم ، واستقلال يحفظ كرامة الامة ويعيد اليها مجدها ؛ وهو بهذا يعدّ اب النظم الدستورية والحركات الاستقلالية في العالم الاسلامي . ولعله ما كان يقنع باستقلال الاقطار وانفصال بعضها عن بعض ، وانما كان يطمح في تحقيق جامعة اسلامية ، وقيام دولة كبرى تنافس الدول الاوربية . طوّف ما طوّف في الشرق والغرب ، وبث آراءه هنا وهناك . استضافه الملوك والامراء ، تقديراً لشأنه واتقاء لخطره ، ثم لا يلبث ان تحاك له الدسائس والمؤامرات ، فيرحل فارّاً او معتذراً .

زار مصر غير مرة ، واقام فيها زمناً ، وعمرت مجالسه بالتلاميذ والاتباع . وعلى رأسهم محمد عبده الذي فتح امامه آفاقاً جديدة ، فوجهه نحو الثقافة الغربية ، ووقفه على ما لمسه في البلاد الاسلامية من مشاكل وصعوبات . وقد اعجب السيد بتلميذه ، ولم يكن فارق السن بينهما كبيراً .. فزامله وآخاه ، واصبحا يرمزان معاً للدعوة الجديدة ، ويحملان راية التجديد والاصلاح .

والواقع ان الاستاذ الامام تأثر بجمال الدين واثّر فيه ، اخذ عنه دعوة التجديد وشاركه في آرائه السياسية ، ولكنه كان يرى ان الامر اعقد من ان يحلّ بالعنف ، واعمق من ان يؤخذ على عجل . والجدير بنا ان ننشئ الشعوب الاسلامية تنشئة سليمة ، ونربّيها تربية دينية واستقلالية ، ونخلق فيها باختصار الوعي القومي والديني الصحيح . وسبيل ذلك ان نبث الافكار الجديدة في الدرس والمحاضرة ، وننشرها في الصحف والاندية . وما مجلة « العروة الوثقى » التي ظهر منها ١٨ عدداً في ثمانية اشهر الاصورة من وسائل هذا النشر ، اشرف عليها السيد ، وحرر معظمها الاستاذ الامام . اخرجها معاً في باريس باسم تلك الجمعية التي كانت تمثل رابطة الشعوب الاسلامية ، وهي « جمعية العروة الوثقى » ، الا انها لم تلبث ان ماتت في مهدها تحت ضغط الاستعمار الانكليزي وحبائله . وفي سبيل النشر

لظفي السيد بين المصلحين ٧

ايضاً لجأ السيد في اخريات حياته الى الدرس والمحاضرة ، في أيا صوفيا ومسجد احمد باسطنبول ، ولم يتسع لهما وقته في عنفوان الشباب .

اما تلميذه وصديقه فقد كان ارغب في البحث والتأمل ، واميل الى الهدوء والاعتدال . نشأ مدرساً ، وبقي يحن الى التدريس دائماً ، ولم يضيع فرصته قط ، وان صرفته عنه شواغل شتى . فلم يكذب يستقر بمنفاه في بيروت عام ١٨٨٥ حتى حوِّله الى قاعة بحث ودرس ، واخرج عدة كتب في اربع سنوات ، وكان من احب الامور اليه ، وهو يظطلع بوظيفة مفتي الديار المصرية ، درس التفسير في الرواق العباسي بالازهر . واقامة للنهضة على اسس سليمة دعا الى اصلاح التعليم ، وبدأ بالازهر فسن سنة تطوير الدراسة فيه . ونادى باصلاح المحاكم الشرعية ، واقترح انشاء مدرسة خاصة لتخريج قضاتها ، فوضع اللبنة الاولى في بناء مدرسة القضاء الشرعي . وتعمق في درس التوحيد والفقهاء ، فصاغ العقيدة الاسلامية صياغة تنفي عنها الزيغ والجمود ، وفتح باب الاجتهاد الذي ابت القرون السابقة الا ان تغلقه . رأى ضرورة تطور التشريع في ضوء ظروف المجتمع وحاجاته ، واستطاع بذلك ان يلائم بين الحضارة الغربية والمبادئ الاسلامية . واذا كان على الشعب واجب الطاعة للولاة والحكام ، فان من حقه ان يناقشهم الحساب بواسطة ممثليه ، وكان محمد عبده نفسه عضواً في مجلس شورى القوانين . تلك هي آراؤه في الاصلاح والتجديد ، نشرها في درسه ومجلسه ، واعلنها في كتبه ومقالاته . واتخذ من « الوقائع المصرية » ، يوم ان تولى تحريرها ، منبراً لنشر الافكار الجديدة ، ووسيلة للنهوض بالادب واللغة .

في هذا الجو نشأ لظفي السيد ، تأخر عن زميليه نحو ربع قرن ، وظهر حين بدأت تعاليمهما تنمو وتنتشر . عرفه محمد عبده في مدرسة الحقوق سنة ١٨٩٢ ، واعجب باسلوبه ، مما شجعه على الكتابة والنشر . وتوثقت الصلات بينهما فيما بعد ، الى حد اغضب الخديوي عليه في وقت كان يحظى فيه بالرضا السامي . ولم يفته ان يتلمذ لجمال الدين ، سعى اليه في اسطنبول وهو ما يزال طالبا في مدرسة الحقوق ، واخذ بحديثه ومجلسه ، واحس بمقته للسياسة الانكليزية في البلاد الاسلامية . ولا شك في ان صلته بالثقافة الغربية كانت

اوثق من صلة استاذيه، اجاد الفرنسية اجادته للعربية، وقرأ فيها ما لم يقرأ واحد منها، وهو بوجه عام كثير القراءة. ولقي من فلاسفة الغرب وادبائه ما لم يلقيا؛ فكان اقرب الى ثقافتهم، واكثر اخذاً عنها، واشد تعلقاً بها.

شغلته ابواب الاصلاح في سن مبكرة، وحاول ان يدرسها درساً منهجياً، وان يحولها من افكار عامة غامضة الى حقائق محدودة واضحة. وكانت السياسة اول ما اجتذبه، فكوّن وهو لا يزال معاوناً للنيابة مع بعض الاصدقاء جمعية سرية لتحرير مصر، واريد به ان يقيم في سويسرة مدة تمكنه من الحصول على الجنسية السويسرية، وبذا يستطيع ان يصدر تحت هذه الحماية صحيفة تقاوم الاحتلال البريطاني، وفعلاً سافر في عام ١٨٩٧، وما اشبهه في ذلك بمغامرات استاذه جمال الدين. وفي عام ١٩٠٥ رأى ان يتفرغ نهائياً للحياة السياسية، وان يواجهها مواجهة حقّة، فاستقال من النيابة، وانشأ «الجريدة» مع جماعة ممن كانوا يسمون اصحاب المصالح الحقيقية، واسس بعد ظهورها بقليل «حزب الامة». وقد وكل اليه ادارتها ورئاسة تحريرها، واضحت مدرسة صحفية تخرج فيها صحفيو المستقبل، امثال هيكل وطه حسين. ولعلها اول صحيفة مصرية لحما ودما، قامت على ايد مصرية وبرأس مال مصري، ولها شأنها في النهضة الادبية وفي ادب المقالة بوجه خاص، الذي رسم الاستاذ الامام معاليه في «الوقائع المصرية» من قبل. وكان هدفها ارشاد الامة الى اسباب الرقي، واسداء النصيح للحكومة، ونقدها ان دعا الامر. ولم تلبث ان اثارَت سخط الخديوي، وعرضت لرئيس تحريرها للغضب السامي.

وفي حزب الامة حاول ان يجعل من مبادئه نظريات علمية، فيحدد معنى الوطنية والقومية، ويعرض للمشاكل الحاضرة في ضوء آراء علماء السياسة والاجتماع، يصدر تارة عن ارسطو واخرى عن اوغست كونت. واستطاع في شجاعة ان يعارض فكرة الجامعة الاسلامية برغم كثرة مؤيديها، واحل محلها فكرة القومية المصرية. واليه تعزى «سياسة مصر للمصريين»، وفي رأيه ان عليهم وحدهم يقع عبء تحريرها واستقلالها، دون ان يطلبوا معونة من دولة اجنبية. وكان يعلن ان خدمة الدولة تكليف لا تشريف، وان الوظيفة مهما يكن نوعها فريضة لا منحة. دافع ما وسعه عن الحرية لانها هي الحياة بل اعز منها، وعن الدستور لانه يقرر سلطة الامة ويحميها من استبداد

الفرد ، وعن الحياة النيابية لانها اصلح من اي نوع من الحكومات الاخرى فسياسته ديمقراطية برلمانية تعتمد بالفرد وتعول على الشورى ، تميل الى الاعتدال ، وتحكم العقل والمنطق اكثر مما تخضع للشعور والعاطفة .

استمر يردد هذه التعاليم في الحزب وفيه الجريدة ، الى ان قامت الحرب العالمية الاولى ، وكان يأمل الا تشارك مصر فيها الا بضمن . وعبثاً حاول دون جدوى ، فقرر ان يكسر قلمه ويعتزل السياسة والصحافة معا ، ولكن الى حين . فقد بقي في مقدمة اقطاب السياسة المصرية في الخمسين سنة الاخيرة : بعث مع سعد زغلول وعبد العزيز فهمي وعلي شعراوي ومحمد محمود شرارة ثورة سنة ١٩١٩ ، وتابع آثارها خطوة خطوة . فكان من مؤسسي الوفد المصري ، وتولى الوزارة غير مرة ، وساهم في المفاوضات المصرية البريطانية بشخصه أو برأيه ، وكان يرجع اليه غالباً في المشاكل السياسية الكبرى ، ولرأيه وزنه وقيمه ، خصوصاً وهو لم ينغمس في الخصومة الحزبية .

والسياسة عنده وثيقة الصلة بالاجتماع ، وحظّ الامّة من النضج السياسي رهن بمستواها الاجتماعي . وكما كان يحلو له ان يتحدث عن الجماعات البشرية وخصائصها وعن الشعوب وطبائعها ، ويحاول عادة ان يفسر الظواهر الاجتماعية في ضوء ثقافة الامّة وتقاليدها ومعتقداتها . وكان يؤمن ايماناً جازماً بنظرية التطور ، ينادي بها ويشرحها عند كل مناسبة . وفي رأيه ان الفرد يتطور كما يتطور المجتمع ، ومن الظلم ان نحكم على الشباب بعقلية الشيوخ ، وشباب اليوم غير شباب الامس . ولقد بقي فيلسوفنا التطوري شاباً برغم تقدم سنه ، ينكره الشيوخ احياناً ، وقلّ ان يحس الشبان والكهول بالبعد عنه . يستقبل الافكار الجديدة برحابة صدر ، ويزنها بميزانها الصحيح دون تعصب او تحيز . وكل همه ان يلاثم بين دعوة الاصلاح وسنة التطور ، لانها ان خرجت عليها فلا امل في نجاحها .

وهذا المصلح ممن يقولون بنظرية التقدم ايضاً ، فهو يرى ان الانسانية سائرة الى الامام في علمها وصناعتها ، في بحثها وتفكيرها ، في نظمها وقوانينها ، فهو من انصار

لطفى السيد بين المصلحين ١١

التفاؤل الذين يرون الخير في التجديد والتغيير . وجيل اليوم خير من جيل الامس ، وثلاثة اجيال ناهضة كفيلة بان ترقى بالامة المصرية الى مستوى الكمال . وليس القول بالتطور والتقدم من ابتداعه ، ولكنه كان مخلصا لها في دعواته الاصلاحية . واضحت فكرة الاجيال الثلاثة عقيدة ثابتة لا تخفى على تلاميذه واصدقائه . وفي ضوء هذا حاول ان يصلح وهو مملؤ بالامل والرجاء ، وقد مدّ الله في اجله الى ان شاهد ببصره ثمار اصلاحه . وكان يرى منذ اخريات القرن الماضي ان المرأة ، وهي دعامة الاسرة ، مقيدة في مصر بالاغلال ، وانها لا تؤدي وظيفتها الاجتماعية اداء كاملا . لذلك رحب بدعوة صديقه قاسم امين ، وقرأ معه كتاب « تحرير المرأة » قبل ان ينشر . واضطلع هو بوضع هذه الدعوة موضع التنفيذ ، فافسح للمرأة المجال في حديثه ومجلسه ، وكتب عنها في وقت كان يعدّ فيه كل ما يتصل بالنساء عورة . وخطا الخطوة الكبرى فيما بعد ، ففتح للفتاة المصرية باب التعليم الجامعي ، واجلسها مع الفتى المصري جنباً الى جنب . خطاها على مسؤوليته وهو يقدر مدى نفور الرأي العام منها في البداية ، ولاقي في سبيلها ما لاقى من استنكار ومعارضة . ولقد طابت نفسه يوم ان ظهرت ثمار غرسه ، وبدت المرأة المتعلمة زهرة المجتمع المصري تؤدي رسالتها في شتى الميادين ، وسمت مراتبها حتى اصبحت وزيرة .

ولا سبيل الى نهوض حقيقي الا بالعلم ، والعلم الغزير . وقد اريد بالتعليم الحديث في مصر بعد الاحتلال البريطاني ان يقف عند المدرسة الثانوية ، وللسياسة الاستعمارية في ذلك اهداف لا تخفى . وما انشئ في اخريات القرن الماضي من معاهد عالية كمدرسة الحقوق ودار العلوم لم يكن ينحو تماماً منحى التعليم الجامعي . واذا كانت مصر تبعث ببعض بنينا الى الجامعات الاوربية ، فما اجرها ان تكون لها جامعة خاصة بها . وكان لطفى السيد على رأس الداعين الى هذه الجامعة ، ولتكن اهلية مادام المسؤولون لا يرحبون بها ، وربما كان هذا اعون على استقلالها وتحررها . وفعلاً انشئت سنة ١٩٠٨ على صورة كلية آداب مصغرة ، ودعي للتدريس فيها بعض كبار المستشرقين . وكان استاذ الجيل على اتصال وثيق بها ، واختير وكيلا لها زمناً حاول فيه ان تعترف الدولة بشهادتها . وانتهى الامر اخيراً الى انشاء الجامعة الاميرية عام ١٩٢٣ ، وادمجت فيها الجامعة القديمة . واختير لطفى السيد مديراً لها ، واستمر يشغل هذا الكرسي حتى سنة ١٩٤١ فيما عدا فترات

دعي فيها للوزارة ، او استقال محتجاً على ما وجهه للجامعة من عدوان .
ولقد كان حريصاً على امرين هامين : استقلال الجامعة ، وحرية البحث العلمي . وخطا
في سبيل استقلالها خطوات اوشكت ان تضاهي بها اقدم الجامعات الاوربية ، فاعتبرت
معهداً عاماً مستقلاً له شخصيته المعنوية ، يدير شؤونه بنفسه ويسمو على التيارات السياسية
والحزبية . ولم يتردد في ان يستقيل من منصبه مرتين حماية لهذا الاستقلال ، ولانزال نذكر
استقالته الاولى المدوية عام ١٩٣٢ التي تعد احد احجار الزاوية في بنيان الحياة الجامعية
المصرية . واما حرية البحث فهي في نظره اساس الدراسة الجامعية ، ولا قيمة لها بدونها .
وقد ضرب لها من نفسه مثلاً في حديثه مع الاساتذة والطلاب ، وفيما رسمه لهم من الوان
التقد وفتح امامهم من ابواب المناقشة . وحماها بكل قواه ، ولم ننس بعد خصومة
الشعر الجاهلي التي اريد بها ان تكون قضية دينية ، وابى الا ان يعتبرها نظرية علمية .
وحياتنا الجامعية مدينة له في كثير من تقاليدنا ، وهو اب التعليم الجامعي غير منازع .
كان يدرك تمام الادراك رسالة الجامعة ، ويبدل ما وسعه لحسن ادائها . وهدفها
الاول في رأيه ان تنهض بالبحرث العلمية والادبية ، بحيث يستطيع الجامعيون المصريون
ان يساهموا بنصيب في رقي المعارف الانسانية . ومن رسالتها تربية اجيال من القادة
تسد بهم البلاد حاجتها في شتى المرافق ، ونشر الثقافة العلمية والادبية في جميع الطبقات ،
ودفع عجلة التطور الاجتماعي بما تستحدثه من تجديد في العلم والفن . وعنده ان مجد
لامة في شيتين : حياة جامعية صحيحة ، ونظام نيابي سليم ، وهما معاً متعاونان
ومتكاملان .

ومن اسباب النهوض الهامة يسر اللغة ومواجهتها لحاجات العصر ومقتضياته ، وقد
اضطلعت الفصحى في الماضي برسالة حضارية كبرى ، وما اجردها ان تضطلع بها اليوم ،
والاحلت العامة محلها . وكثيراً ما حاول لظفي السيد الصحفي والمؤلف والمترجم
ان يقرب العربية من الحياة ، وان يخرج بها من الجمود الذي بليت به في القرون الاخيرة .
ومن وسائل تطويرها قيام مجمع لغوي يحافظ على سلامتها ، ويحرص على وفائها بمطالب
العلوم والفنون . وكان سباقاً الى الدعوة الى انشاء هذا المجمع ، انشأه اولاً اهلياً عام
١٩١٦ ، وتعهده مع فريق من كبار العلماء والادباء ، واعد له ثانياً العدة رسمياً حين كان
وزيراً للمعارف عام ١٩٢٨ . ثم رأسه منذ عام ١٩٤٢ ، وطالب له ان يجلس فيه مع رجال
العلم واللغة والادب . وآثاره فيه اجل من ان تحصى ، اسبغ عليه هالة من وقاره وجلاله ،

وسنّ له سنة العمل الصامت ، ووجهه نحو الفاظ الحضارة والحياة العامة ، ونمى فيه روح التسجيل واحترام الاستعمال السائد ، ورسم له حدوداً ومعالم يعيش عليها اليوم .

هذا هو لطفى السيد المجدد والمصلح ، وقلّ ان نجد احداً احتفظ في شيخوخته بروح التجديد مثلما فعل ، وسارع الى تبني الافكار الجديدة مهما تبدو غريبة . وقد امتدت آراؤه ومشروعاته الاصلاحية الى نواحي الحياة السياسية والاجتماعية والثقافية في مصر ، واصبح استاذ اجيال لا جيل واحد ، وكأنا شاء القدر ان يفسح له في العمر ليقف على مدى صدق آرائه ونظرياته . فكر في هدو ، وعمل في هدو ايضاً ، لم يتعجل في شيء قط لانه كان واثقاً مما يقول ويعمل . ولا شكّ في ان هدو وقاه كثيراً من حملات الخصومة والمعارضة . وقد يرمى لهدو هذا بشيء من العجز والتردد ، ولكن قلّ ان تخطىء الخطى الثابتة .

واذا وضعناه الى جانب زميليه ادر كنا مدى التلاقي بينهم ، ولاحظنا ان ثلاثتهم كانوا صحفياً وخطباء وكتاباً وفلاسفة ، ولكنهم مع هذا يتميزون تميزاً واضحاً : فجمال الدين مصلح سياسي ، ومحمد عبده مصلح ديني ، ولطفى السيد مصلح اجتماعي .